المرجعية الفلسفية الأنجلوساكسونية للتربية الدينية عند جون ديوي

بن صابر محمد[1]، إشراف: أ.د سواريت بن عمر[2]

[1]. طالب دكتوراه، عضو في مختبر فلسفة وتاريخها، جامعة وهران2

[2]. قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران2

****

تاريخ الإرسال: 2018/04/10 تارخ القبول: 2018/06/06 تاريخ النشر: 2018/06/30

ملخص:

يعتقد جون ديوي أن التربية هي الطريقة الأساسية للتقدم والإصلاح الإجتماعي فكل إصلاح لا يعتمد إلا على قوة القانون فهو إصلاح عابر لا قيمة له. والمدرسة هي أولا مؤسسة إجتماعية وأن التربية من حيث إنها عملية إجتماعية، فالمدرسة هي صورة الحياة الجماعية وهي عملية للحياة وليست إعداد الحياة مستقبلية. تدور التربية الخلقية حول هذه الفكرة من أن المدرسة لون من الحياة الإجتماعية يجب أن تكون حياة الجماعة هي السبيل إلى إثارة الطفل ورقابته في عمله، فالحياة الإجتماعية للطفل هي الأساس الذي يرتكز عليه أو يرتبط به جميع تدريبه أو نموه. فهي التي تقدم لجميع جهود الطفل وغاياته وحدتها اللاشعورية وأساسها.

يرى أن التوفيق في المدرسة المثالية بين المثل العليا الفردية والإجتماعية، وواجب الجماعة الذي تؤديه للتربية هو إذن واجبها الأخلاقي الأعظم. يمكن للقانون أن ينظم المجتمع، أما بالتربية فيستطيع المجتمع أن يصوغ أغراضه الخاصة به وأن ينظم وسائله وموارده.

الكلمات المفتاحية: التربية الدينية، المدرسة، الطفل، المجتمع، الفرد، الأخلاق

Abstract:

John Dewey believes that education is the fundamentals méthod of social progress and reform. All reforms which rest simply upon the enactment of law are transitory and futile, the school is primarily a social institution, education being a social prosess, the school is simply that form of commnity life. Is education the refore is a peocess of living and a preparation for future living. The moral education centres upon this conception of the schools as a mode of social life, the child schoold be stimulated and controlled in his work thru the life of the community.

The social life of the childs is the basis of concentration or correlation, in all his training the unconscious unity and the background of all his effotrs and of all his attainments. In the ideal school we have the reconciliation of the individualistic and the instutional ideals, the

commity daty to education is, therefore, its paramont moral daty.By law socity can regulate, but thru education societu can fommulate,its own pourposes, can organize its own means and resources.

Key words: Religious education, School, Child, Community, Individual, Moral

توطئة:

شهد تاريخ التربية عبر العصور حقب مختلفة، فقد اهتم الصينيون القدماء بالتربية الأخلاقية واليونانيون بالتربية العقلية، واعتنى الرومان بالتربية الجسمية، وركزت المسيحية في العصور الوسطى على الأمور الروحية والتربية الدينية، واشتغل الفكر الإسلامي بالتربية في أمور الدين والدنيا، أما العصر الحديث فقد أصبحت التربية منهجاً علمياً قائماً على الملاحظة والتجريب والبحث والدراسة، فالمدرسة جزء من المجتمع تساهم في بناء الفرد.

مند القدم، صرف الفلاسفة جهدهم للتربية والتعليم باعتبارهما ميدانين لتطبيق أفكارهم الفلسفية، سواء في إصلاح أوضاع مجتمعاتهم السياسية، الإقتصادية والإجتماعية. وقد انعكست هذه الفلسفة على أفكار جون ديوي التربوية، ليلتقي مع كبار ورواد التربية من فلاسفة عصر النهضة في العالم **الأنجلوساكسوني**. من هنا، نتساءل ما المرجعية الدينية والنفسية والاجتماعية والسياسية التي استمد منها ديوي أفكاره لتطوير مشروعه التربوي؟

1. التربية الدينية في العصور الوسطى:

خضعت التربية للكنيسة خلال العصور الوسطى وقد أثر أستاذ اللاهوت الألماني "لوثر مارتن Martin Luther" على التربية، فهدفها مساعدة الفرد على فهم إلتزاماته الاجتماعية لتحقيق مجتمع مسيحي سليم يعرف كل واجباته الدينية. يؤكد لوثر على دور المدرس فعمله مقدس، لأنه يساهم في نشر المسيحية في المجتمع، إن النظام المدرسي يخلق لنا أنجح التلاميذ الذين يلتحقوا بالجامعات ثم يختار من بينهم الفائزين للإشراف على المناصب الهامة في الدولة.[1]

[1] أحمد راجع سعد مرسي، تطور الفكر التربوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، سنة1986، ص389

يرى لوثر أن وظيفة التربية تهتم بالفرد من الناحية الدينية والعقلية ويتفق مع أفلاطون في أهمية الموسيقى لإنفعالات الإنسان، حيث يرى أن الموسيقى هبة من الإله وتأتي بعد الدين وتساعد على أن يصبح الفرد صالحا.

ويوضح التربية المسيحية، في قوله: "إنني أرغب في عديد من الشعراء واللغويين ولكن لا لمصلحة اللغة اللاتينية وأشعارها، ونحوها وبيانها وإنما لتكون دراستهم للأداب القديمة طريقا للوصول إلى الصدق المقدس الذي يهديهم سواء السبيل."[1]

في مقام أخر، نجده يذكر مكانة المدرس حيث يقول: "إننا لن نجزي هذا الشخص المثابر المدرس أو المهذب الجزء الأوفى فأي مقدار من المال لن يوفى له دينه الذي في أعناقنا هكذا قال غير المتدين أرسطو، ومع هذا فنحن نعامل المدرسين بكل إحتقار وكأنهم فئة لا قيمة لها ولا إعتبار ثم ندعى دائما أننا مسيحيون مؤمنون."[2]

على ضوء كلام لوثر، نفهم أنه ربط التربية الدينية بالمدرس الذي يساهم في بناء الكنيسة وتحضير أجيال واعية، فهي تربية دينية عميقة كونها تبدأ في مراحل التربية الأولى للأطفال فترسخ في عقيدتهم تربية تحمل في جوهرها طابعا دينيا تفيدنا في الحياة.

اهتم لوثر بدور الأسرة كمؤسسة تربوية في إثارة المعاني الخلفية والدينية وممارستها على هدى من الكتاب المقدس، وقد ساعد هذا في تحقيق بعض مبادئ البروتستانت والحرص على قراءة الكتاب المقدس وأداء الشعائر الدينية والصلوات.

وأمام هجمات البروتستانت ردت عليهم الحركة الكاثوليكية وقامت نزعات دموية سالت فيها دماء كثيرة تحت شعار مجد الرب ومملكة المسيح، وأقيمت المحاكم الرومانية لتحكم على الكاثوليك بالهرطقة والضلال الديني والشعوذة وسب الدين، وفي هذا الوضع عقد البابا مجمعًا في "ترانتTrent" سنة1543 من أجل تحديد العقيدة الكاثوليكية، وأنشأت جمعيات دينية تحت اسم "الجيزويت Jesuit" و"جماعة الخطباء Oratoriens"و"الإخوان المسحيين Christian Brothers" وقد أقامت جماعة الجيزويت قانون وجوب احترام السلطة القانونية تحت شعار الكل للمجد الأعلى للرب.

كما أسست معاهد تربوية تهتم بالجانب الديني كعنصر فعال في التربية لجميع فئات المجتمع، وانقسم المدرسيون في المدارس الجيزويت إلى: أساتذة، المساعدين، المدرسيّين

[1] المرجع نفسه، ص380

[2] المرجع نفسه، ص384

الطلبة المعلمين، أما التلاميذ يلتحقون في سن العاشرة بالمدارس وسميت أيضا بالكليات الدنيا يدرس فيها لمدة خمسة سنوات ثم الكليات العليا أي الجامعات. وقد إنتشرت مدارس الجيزويت في أنحاء العالم الغربي، وذكر "ماكورميك Macormick " أنه وصل عدد الطلبة في منتصف القرن الثامن عشر إلى 210 ألف طالبا وقد ساهم "البابا بيوس السابع" في تطورها وانتشارها.[1]

لقد أكد البروتستانت على أهمية الكتاب المقدس كمصدر للإيمان وأساس للعقيدة والسلطة الدينية والخلقية، وفي المقابل رفض البروتستانتيون دعاوى البابا ورجال الكنيسة الكاثوليكية بأنهم المفوضون لشرح العقيدة المسيحية، لكنهم اتفقوا على أن العالم من خلق الإله، وهناك عالمان عالم طبيعي وعالم روحي. يقول لوثر: " أنتم لستم بحاجة إلى رجال الدين لكي تفهموا دينكم، أو لكي تفسروا الكتاب المقدس، فالمؤمن له علاقة مباشرة مع ربه وليس بحاجة إلى وسيط، لقد إنتهى عهد الوسطاء والسماسرة الدين يتاجرون بالدين والدين الحق منهم براء، إنهم يزيدون الشعب جهلا وفقرا، فلا نعترف إلا بالإنجيل."[2]

كما أن الهدف الأول في تربية الإنسان هو معرفته للقوانين والأحكام الإلهية، كما أن التعلم ضروري يساعد في معرفة الأفكار الفطرية التي توجد في الفرد.

لقد وصف لوثر أن العلوم زوجة الشيطان، وأنها أعدى أعداء الإله، وقف بعض الفلاسفة ضد العلوم كونها تسيء إلى الدين واللاهوت والأخلاق والميتافيزيقا، يقول "جورج باركلي George Barkly": " أن المادة لا توجد منفصلة عن كينونتها المدركة وأن عقل الله الذي يلاحظ كل شيء هو القادر على إستمرار الوجود الظاهري للأشياء المادية."[3]

2. التربية الدينية في عصر النهضة:

غير بعيد عن المشهد الديني الألماني نجد الفيلسوف الإنجليزي "فرنسيس بيكون Francis Bacon" الذي يرى أن تربية الفرد تكون بطريقة علمية، وهذا ينشأ لنا نظام

---

[1] عبد الله عبد الدايم، التربية عبر التاريخ، من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، سنة1973، ص297

[2] هشام صالح، مقال من الشرق الأوسط، جريدة العرب الدولية، العدد14252، الثلاثاء 05 /2017/12 https//aawsat.com

[3] المرجع السابق، ص391

اجتماعي جديد كما أن المدارس، إذا نشرت المعرفة فإن هذا يؤدي إلى حل المشكلات فالتربية نحققها بقوة المعرفة وهي التي تحسن أحوال الناس فالتربية تؤسس على المعرفة العلمية. يقول أن المعرفة قوة أي المعرفة ينبغي أن تتمر في أعمال وأن العلم ينبغي أن يكون قابلا للتطبيق في الحياة الإنسانية كالميدان الصناعة، وعلى الناس أن يحسنوا ظروف حياتهم فهو واجب مقدس عليهم.

فالعلم في رأي بيكون يثمر أعمالا ويغير الحياة، بمعنى أن العلم الذي يدرس في معاهد العلم الموجودة ليس علما، وأنه لا بد من حدوث ثورة شاملة في نظرة المجتمع إلى العلم وإلى وظيفته وطريقة تحصيله.[1]

احتل بيكون مكانة فكرية، فقد أعتبر رائد التبشير لروح الحياة الحديثة، كانت حكمته المأثورة "المعرفة قوة"، واعتبر المعرفة ليست حقيقية، لأنها لا تحقق القوة فهي معرفة زائفة صنف التعليم إلى ثلاثة موضوعات رئيسة: الموضوعات الرومانسية التعليم الأدبي نتيجة إحياء اللغات القديمة حضي بمكانة ثقافية مرموقة في عصر النهضة[2]؛ وموضوعات خيالية وغير واقعية وعجيبة شوهت المعرفة؛ وموضوعات مثيرة للجدل والخلافات والصراع. وقد اعتبر موضوعات العلم التشبيه بالسحر التي انتشرت في أوروبا في القرن السادس عشر بالتعليم الغريب، وقد كانت سببا في إفساد الأمور الخيرة والحسنة أسوأ أنواع الشر.

يقول ديوي: " لم أكن أعلم حين قال وليم جيمس إن البراغماتية إسم جديد لطريقة قديمة في التفكير، إنه كان يقصد بالتحديد فرنسيس بيكون الذي يعتبر أول من بشر بالمفهوم البراغماتي للمعرفة."[3]

من قول ديوي تتضح العلاقة المعرفية البراغماتية التي استمدها من بيكون. ويمكن القول لقد فشل تيار الأفكار التي نتجت من تعريف بيكون للمعرفة بأنها قوة في الحصول على التحرر الكامل، والانطلاق والتعبير عن نفسه، فكان الغموض الذي شمل الفلسفة الحديثة نتاج محاولة الجمع بين شيئين يستحيل الربط بينهما منطقيا وأخلاقيا.

---

[1] محمد عبد الرحمن بيصار، تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، منشورات المكتبة العصرية، مصر، ط3، سنة 1980، ص30

[2] جون ديوي، إعادة البناء في الفلسفة، أحمد الأنصاري ومراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، مصر، سنة2010، ص59

[3] جون ديوي، إعادة البناء في الفلسفة، ص68

لقد أثرت أفكار بيكون في المربي التشيكي الأصل *جون كومينوس John cuminos الذي يرى أن طرق المعرفة هي الحواس والعقل والكشف الإلهي وتحقيق التوازن بينهم يمنعنا من الوقوع في الخطأ.

يميل كومينوس إلى الاهتمام بالتربية الدينية كونه كان بروتستانتي، فتشكلت لديه عقيدة تربوية فلسفية وظهرت جلية في مؤلفه" المرشد العظيم Great Didactic" الذي كتبه عام 1632 وقد تكلم عن القوة الأساسية في العملية التربوية خاصة في الفصل الثاني يرى أن الحياة مستمرة والإنسان هو صورة الله في الأرض.

لكي يقوم الإنسان بدوره العاقل في هذا العالم فعليه أن يلم بالمعرفة كلها، ولكي يكون سيد الكائنات فيجب أن توهب له القوة على نفسه وعلى الأشياء، ولكي يعد لرسالته الدينية يشير إلى التربية التي يهدف إلى المعرفة والفضيلة والتقوى. والتي يحققها الفرد في حياته ضمن مجتمع صالح يتربى تربية دينية صالحة تعود على المجتمع بالمنفعة. قسم كومنيوس مراحل التربية إلى أربعة مراحل:

1. مرحلة الأم تبدأ خلال الستة سنوات الأولى يتعلم فيها الكلام
2. المرحلة الإبتدائية وتسمى مدرسة اللغة القومية من سن الستة إلى الإثني عشر يتعلم فيها الطفل اللغة القومية والحساب والدين
3. المدرسة اللاتينية من الإثني عشر إلى الثامنة عشر يتعلم الطفل فيها أربعة لغات هي اللغة القومية، اللاتينية، الإغريقية، العبرية
4. من الثامنة عشر إلى أربعة والعشرين يدخل في الدراسة الجامعية تعطى الفرصة للفرد حتى يبرهم عن إرادته ويطورها[1].

كما أن نجاح العملية التربوية يكون بخطوات ذكرها كومنيوس منها: إذا بدأت في سن مبكر قبل أن يفسد العقل، إذا كان العقل مستعدا لها، إذا كانت من العام إلى الخاص ومن السهل إلى الصعب، إذا لم يدرس التلميذ مواد كثيرة، معرفة فائدة التعلم وإستعمال الحواس لقد حاول كومنيوس خلق طريقة علمية تربوية تهدف إلى تحقيق تربية دينية.

* جون كومينوس John cuminos مصلح وتربوي ذو عقل موسوعي، ولد في مورافيا Moravia سنة 1592 بجمهورية التشيك الحالية، درس في جامعة هايد لبرغ بألمانيا تأثر بفلسفته عدد من كبار المربين ومنهم فروبل Froebel، وتوفي في مدينة أمستردام بهولندا سنة1670.

[1] أحمد راجع سعد مرسي، تطور الفكر التربوي، ص406

وضع فلسفة تربوية جديدة عرفت بإسم "المعرفة الكلية universel knowledge" بناها على خبرته الطويلة في مجال التعليم. كان من أشد المعارضين لطبيعة التعليم النظرية التي سادت عصره، وقامت على حفظ المعلومات واستذكارها. كما رفض مقولة أن الأطفال راشدين صغار، وهي االفكرة التي كانت شائعة بين معظم التربويين المعاصرين له.

وصف المدارس التي عاملتهم وفقها بِ مسالخ العقول slaughterhouses of minds دعى إلى ضرورة إلتحاق جميع الأطفال بالمدرسة وتلقيهم تربية واحدة، وأن يفهم المعلم طبيعة الطفل المتعلم، وكيفية تطور عقله وتعلمه.

أكد على استخدام الأطفال حواسهم في التعليم، وأكد على أن الفهم لا يتحقق إلا بإدراك كل الأشياء التي يسميها، هذا يعني أن العملية التربوية تنطلق من الملاحظة التي تساعد الطفل في إدراك النماذج والصور.

هكذا يكون كومنيوس قد أولى تقنيات التعليم وتطبيقاتها في التربية وأرسى مبدأ الواقعيةréalisme في التربية.

إستطاع أن يهيمن على الساحة التربوية بمؤلفاته التي صخرها لإصلاح النظام التربوي، بداية مع أول كتاب مدرسي بعنوان "فن التعليم الرائعthe Great didactic "المزود بالرسوم الإيضاحية لتعليم الأطفال اللغة اللاتينية، وكتاب العالم المرئي بالصور سنة 1658 وهو أول كتاب مصور للأطفال the visible world in pictures صمم بطريقة تشد انتباه وتثير اهتمام الأطفال وتسهل عليهم التعلم.

وكتابه أيضا" مدرسة الطفولة the school of infancy ، هذه الكتب جعلته يكتسب سمعة مرموقة في الأوساط التربوية بمختلف البلدان الأوروبية، التي دعت إلى إصلاح شامل لنظمها المدرسية كالإنجلترا والسويد، فإنتشرت أفكاره التجديدية وطرائقه التعليمية.

لقد أرغمت كومنيوس الظروف السياسية الصعبة التي واكبته على النزوح مع أتباع مذهبه البروتستنتي هربا من الإضطهاد الديني إبان الحرب خلال سنة (1628.1618) التي جار فيها جيش الإمبراطورية الرومانية المقدسة على المورافيين لكنهم استطاعوا أن يحافظوا على هويتهم المذهبية، بفضل زعامة كومنيوس الدينية عليهم أسقفا على

الكنيسة المورافية، وقد ظهرت هذه الظروف في رسالته التربوية فدعا من خلالها إلى السلم والتفاهم الدولي ثم غادر بولندا بعد إندلاع الحرب سنة1654.[1]

تعتبر النظرية التربوية التي جاء بها كومنيوس خلال القرن السادس عشر امتدادا للتربية الأمريكية التي جاء بها جون ديوي كونه أول من دعا، إلى ترك الطفل يتعلم عن طريق حواسه وخروجه من قاعات المدرسة، وهذه نظرة أكد عليها كومنيوس في أرائه للعملية التعلمية، خاصة وأنه آمن بترك حرية الطفل في استخدام حواسه والاعتماد على الملاحظة، وهذه الفكرة نجدها لاحقا مع الفكر التربوي الأمريكي عند ديوي.

في القرن السادس عشر ظهرت الثورات البرجوازية الأولى تحت راية النزعة الدينية الإصلاحية البروتستانتية، لقد كانت هذه الفترة من أكثر عصور الفوضى التي شهدتها إنجلترا في تاريخها، وضمن هذا التيار الفكري ظهرت الفلسفة التجريبية الإنجليزية مع "جون لوك John Locke" ظهرت أفكاره في عصر الحرب الأهلية الإنجليزية بين الملك والبرلمان، وقد تميزت تجربة لوك أنها جمعت بين عمل العقل والتجربة من جهة والإيمان والوحي من جهة أخرى، لكن كيف أسس لوك منهجه التربوي الإنجليزي؟[2]

نشر لوك كتابه "بعض أفكار عن التربية some thoughts concerning education حيث ذكر فيه أنه يؤمن بضرورة التربية الجسمية والخلقية، وهو من أنصار المذهب التهذيبي، فالتربية لها ثلاثة أنواع: تربية جسمية ترمي إلى تقوية الجسم ونشاطه؛ وتربية عقلية ترمي إلى تزويد العقل بالمعرفة؛ وتربية خلقية ترمي إلى غرس الفضيلة في النفوس. هكذا، فإن هدف التربية تقوية الجسم والفضيلة والمعرفة.

تهدف التربية الأولى إلى تكوين العادات الصالحة ويتعلم الطفل من الأسرة والمعلم ويتعلم التسامح مند طفولته وهذا بالتعليم الديني، وتكون التربية الخلقية سابقة عن التربية العقلية رغم كل هذا فقد أثرت أرائه على التربية الإنجليزية والأمريكية.

أصبحت التربية واقعية حسية، لأن قيمة التربية محصورة في سير التعليم والنضج العقلي الذي يرافقه وليس في المادة التي يدرسها الطالب، وهذا عصر الإصلاح الديني. يرى أن العقل الإنساني عندما يحمله الطفل إلى المدرسة يكون كصفحة البيضاء وتقوم

[1] الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسعة للنشر والتوزيع، المملكة السعودية، ط2، دت، ص609

[2] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، مصر ،دط،دت، ص143

المدرسة بملء جوانبه بالتراث الإنساني والخيرات البشرية، فالمعلم هو الذي يقوم بالعملية التربوية التعليمية.[1]

لقد حاول لوك الدفاع عن الثورة الإنجليزية سنة1688 بتعديل نظرية الاتفاق الاجتماعي وتغير الحكومة، يرى أن جميع الناس يولدون أحرارا متساوين مستقلين، والطفل يكون كالصفحة البيضاء فارغا لا يحمل شيئاً، فالمدرسة هي التي تزوده بالخبرات التعلمية، وهكذا فقد حرمت الطفل من دوافعه وميوله ومن شخصيته الإنسانية المفعمة بالحركة والحياة.[2]

دافع لوك عن حرية الفرد وطالب بإستقلالية التعليم عن الكنيسة وحتى من الحكومة، واشترط أن يكون التعليم بالمنازل، وأشار إلى طريقة التدريس في المدارس وبين شخصية الطفل، فلا يجب أن تكون طريقة جافة بل مناسبة مع نموه، بحكم أن الطفل يحب اللعب، لهذا وجب أن يتحول العمل في المدارس إلى اللعب حتى يتناسب مع طبيعة الطفل.

وينادي لوك بضرورة الاهتمام بالألعاب الرياضية، لأنها تقوي الجسم وتنمي في الطفل القيم الخلقية والإجتماعية وتقوي الروابط بين الفرد والجماعة، فالتربية الخلقية تهذب وتنمي الجانب الخلقي الديني حتى يكون فردا نافعاً في المجتمع. إن أفكار لوك التربوية تدعو لإعداد الطفل لمواجهة الحياة، لهذا وجب علينا تربيته عقليا وجسميا وخلقيا ودينيا والابتعاد عن طريقة حشو ذهن الطفل بالحقائق والمعلومات الجافة التي تبقى في عقله.

يرى لوك أن الخبرة أساس التربية وقدراتنا العقلية سوف لن تقودنا نحو الضلال في المسائل الأخلاقية، والهدف الرئيسي من التعليم هو غرس الفضيلة لدى الطفل، وبالتالي يبقى التعليم عملية أخلاقية. كما أكد لوك على أن الخبرة بالرغم من محدوديتها تقدم لنا النور الذي يهتدي به الناس في حياتهم وسلوكاتهم، فقد فسر أفلاطون وأرسطو لمعنى الخبرة مطابقة تماما لما تعنيه الخبرة اليونانية بالفعل.[3]

[1] محمد لبيب النجحي، الأسس الإجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط2، سنة1981، ص349

[2] محمد لبيب النجحي، مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، سنة1981، ص230

[3] جون ديوي، إعادة البناء في الفلسفة، مصدر سابق، ص94

هذه الأفكار نجدها في النظرية التربوية عند ديوي الذي ينادي أيضا بمبدأ الخبرة، ويركز على الجانب الأخلاقي الذي يفضي إلى تربية دينية تتكون عند الفرد، هذا ما يفسر لنا علاقة الفكر التربوي المرتبط بينهما.

نشأة الفلسفة الطبيعية كرد فعل على المذهب الإنساني الذي ساد في عصر النهضة فركز على دراسة الأدب الإغريقي والروماني وتعود الأصول الأولى للفلسفة الطبيعية الحديثة للمؤسس الفيلسوف المربي المتميز جان جوك روسو Jean Jacques Rousseau الذي يعتبر أول من أطل على القرن الثامن عشر بنزعته التربوية الفلسفية والتي نادى من خلالها بضرورة إتباع الطبيعة في كل شيء.[1]

من أهم التربويين بونفال Bonneval الذي اهتم بالتربية البدنية وانتقد بعنف استخدام القماط، وطلب أن نربي حواس الأطفال وقد أكد على أن عمل المربي في السنوات الأولى على أن يبعد الإنطباعات السيئة عن خيال الطفل، وأن يؤخر تعليم الحقائق الدينية. فظهر أثره على روسو لاحقا خاصة في كتاب "إميل" سنة1762 الذي جمع فيه كل الأفكار التربوية ومراحل نمو الطفل إلى غاية سن الخامسة والعشرين الذي ينتهي بزواجه ويصبح مسؤولا عن التربية مستقبلا.

ولد روسو في جنيف سنة1712 من أب فرنسي وأم سويسرية كانت أدبية وفنانة متذوقة للجمال والموسيقى ومفتونة بالطبيعة والأدب الرومانسي، وقد توفيت بسبب ولادته فتركت هذه الحادثة جرحا نفسيا عميقا على حياة روسو وقد عبر عن هذا بألم شديد في قوله: " لقد كلفت أمي حياتها وكانت ولادتي هي أول سوء حظي في هذه الحياة".[2]

ورث عن أمه حب الجمال والروح الفنية وقوة العاطفة وقد قرأ لها كل الروايات التي تركتها، دخل في العاشرة إلى المدرسة، لكن بسبب سرقة بعض حاجيات زميلة له عاقبه المعلم فترك المدرسة دون رجعة لها. أحب فن النقش على الخشب، لكنه لم يدوم فيه طويلا وعندما بلغ السن الثامن عشر تربى عند إمرأة تسمى "دي وارنر die Warner " وعاش عشرة سنوات معها تعلم في هذه الفترة الفلسفة والموسيقى واللغة اللاتينية، ثم

[1] صالح عبد العزيز، تطور النظرية التربوية، دار العلم، القاهرة، مصر، ط2، سنة1964، ص287

[2] عمر محمد التومي الشباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، دار العلم، بيروت، لبنان، ط2،سنة1985، ص155

تزوج مع "تيريزTheresa" في باريس أنجبت له خمسة أطفال، من أهم مؤلفاته" إميل" يعتبر هذا الكتاب إنجيل المربين توفي سنة1778.

وقد قرأ كتاب الجمهورية لأفلاطون الذي قال عنه: " إنه أحسن كتاب في التربية" كما تأثر برسائل لوك في التربية، ونجد الفيلسوف الألماني " كانطKant " يقول عنه: " إني أعتبر روسو نيوتن النظام الأخلاقي، إذ أنه اكتشف العنصر الأخلاقي أهم عامل يكون وحدة الطبيعة الإنسانية، مثلما اكتشف نيوتن المبدأ الذي ربط بين جميع قوانين الطبيعة الفيزيقية".[1] لقد كتب هذا المؤلف نظرا لتقدم سيدة إليه وطلبت منه أن يرشدها إلى الطريقة المثلى لتربية أبنائها، وقد إستجاب لها، وكتب فيه الكيفية التي يربي فيها الطفل منذ ولادته وحتى بلوغه العشرين، واحتوت الأجزاء الأربعة هذا الموضوع، أما الجزء الخامس تكلم فيه عن تربية "صوفيا" لتكون زوجة لإميل.[2]

يعتقد روسو أن الطفل يتجه بفعله هذا بدافع داخلي هدفه إثبات أن نفسه خيرة، وترى الطبيعة أن التربية إعداد للحاضر، وليس للمستقبل. تقوم النظرة الطبيعية للإنسان على مبدأين؛ أولا، إن النفس الإنسانية خيرة؛ وثانيا، إن الحاضر أصل تطور المستقبل.

ورتبت الطبيعة على هذين المبدأين نتائج، منها: أن طبيعة الطفل خيرة ومن الضروري تركه يفعل ما يريد في حرية كاملة، وتقدم الإنسان المعرفة المناسبة له سواء كان طفلا مراهقا وراشدا. يرى روسو أن التربية الطبيعية هي التربية التي تسيرها القوانين الطبيعية وقد أبدي ثورة ضد المجتمع حيث يرى أن التربية التي تأتي عن طريق الناس تحاول إفساد الطفل. لقد أفصح روسو عن عقيدته الدينية في كتابه "إميل" في الجزء الرابع أنه يؤمن بمبدأ الدين الطبيعيNatural Religion كما أن المبادئ الأخلاقية تقوم على العاطفة فهي التي تحقق السعادة. وانتقد الأخلاق التي تبنى على العقل لأنها أخلاق صناعية نابغة من الحياة الإجتماعية لكن ما التربية حسب روسو؟

يقترح روسو في كتابه "إميل" مفهوم التربية، فيرى أنها لا تعدو أن تكون عادة، كما أنها هي الحياة وهي ضرورية مادامت تستمر طول العمر، وقد حدد مراحل التربية في كتابه:

[1] محمد الفرحان جلوب، الخطاب الفلسفي التربوي الغربي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، سنة1999 ص118

[2] المرجع نفسه، ص119

- من الميلاد إلى خمسة سنوات هي عملية إعداد أولي للطفل الوالدين هما أساس التربية.

- المرحلة الثانية من خمسة إلى إثنتي عشرة سنة تدريب الحواس وإحتكاكها بقوى الطبيعة وظواهرها (تربية حسية خالية من الجانب الروحي).

- المرحلة الثالثة من إثنتي عشرة إلى خمسة عشر حب الاستطلاع.

- المرحلة الرابعة من خمسة عشر إلى عشرون سنة إعداد إميل للحياة مع الأخرين.

هكذا فإن مشروع روسو التربوي في كتاب إميل ينتقل نموه من الجسمي إلى الحسي ثم التجريبي ثم العيش مع الأخرين يقول روسو: " أنا لا يعنيني أن يكون مصير تلميذي الإنضمام إلى الجيش أو الكنيسة أو الإنشغال بالقانون فالطبيعة تندبه قبل كل شيء للحياة الإنسانية."[1]

أي أن الطفل تبقى فيه صفة الإنسانية مهما عمل في أي قطاع كان وترسخ في طبعه، لا يهتم روسو بالجانب الدراسي، حيث يقول:" بدلا من جعل الطفل يرتبط بكتبه فإنني إذا ما وظفته في ورشة فإن يديه سوف تعملان لفائدة عقله، ويصبح فيلسوف وإن كان هو نفسه يتخيل عاملا"[2]، يعني روسو في قوله، أن تجربة الطفل هي مصدر المعرفة.

يرى أن الطفل عندما يبلغ سن السادسة عشر يمكنه الولوج في التفكير الديني، فقبله يكون الطفل يتمتع بخيال مرهف، يميل بطبعه إلى العبادة وهو يتصور الإله بفكرة مليئة بالأوهام. لذا وجب علينا الانتظار لصالح الدين نفسه حتى ينضج عقل الطفل، ويملك فكرا قويا على أن يدرك فكرة الإله إدراكا حقيقيا خالصا من كل قناع حسي وغشاوة مادية.

لقد أثر "روسو" في "ديوي" من خلال الفيلسوف الألماني "كانط Kant" حيث كانت أطروحة الدكتوراه التي وضعها ديوي بعنوان" علم النفس الكانطي" ومن المعلوم أن واحدا من مصادر كتاب كانط في التربية هذا الكتاب نص فريد للفيلسوف الألماني في استحواد لصفحات بالنص منتزعة من كتاب روسو "إميل"، وهذا كان له الأثر الكبير على ديوي.

[1] جون جاك روسو، إميل أو التربية، ترجمة عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، دط، سنة1985، ص28.
[2] المرجع نفسه، ص30

ما العلاقة التربوية بين روسو وكانط؟ وكيف أثرت أفكار كتاب إميل على كانط؟

تصور "كانط" التربية أنها عملية نقل للمعارف من الأجيال السابقة إلى الجيل الجديد بحيث تجعله مؤهلا لأن يكون مربيا للجيل اللاحق. ذكر في مقدمة كتابه "في التربية" يرى أن التربية هي عملية تصنيع للإنسان، وذلك لأنه لا يمكن أن يصير إنسانا إلا بالتربية فالغاية من التربية هي تربية الشخصية وتربية كائن يفعل بحرية ويحافظ على كيان نفسه"[1]، بمعنى الإنسان هو الذي يحقق مصيره بنفسه من خلال معرفة الإستعدادات الطبيعية ويتم ذلك من خلال أجيال، فالجيل الأول يترك تجاربه ومعارفه للجيل الثاني.

فالتربية لا تتم بالترويض، لكن يجب على الأطفال أن يتعلموا كيف يفكرون، والتربية الصحيحة تحتاج إلى مجهودات كثيرة فالتربية عملية تنويرية وهي قسمين تربية خاصة، وتكون في البيت عن طريق الأسرة، وتربية عامة وتكون في المدرسة، فالأولى هدفها تكوين الأخلاق أما الثانية هدفها التعليم والتحصيل.

يبدو أن كانط استمد فكرته من قول أفلاطون:" التربية عملية تدريب أخلاقي والمجهود الإختياري الذي يبدله الجيل القديم لنقل العادات الطيبة للحياة ونقل حكمة الكبار التي وصلوا إليها بتجاربهم إلى الجيل الصغير" إنه يؤكد أن التربية علم الخير والشر.

يميز كانط بين المعلمprecepteur وبين المربيpedagogue فالأول هو مجرد مدرس أما الثاني فهو مرشد يربي من أجل المدرسة والثاني يربي للحياة، ويرى أنه من الأنجع إنشاء المدارس التجريبية أولا، وبعد ذلك مدارس المعلمين، وهذا من الضروري القيام بالتجارب العديدة في حقل التربية.

يسأل كانط عن مدة التربية ويجيب تكون حتى الوقت الذي شاءت فيه الطبيعية أن يقود نفسه بنفسه أي يتولى تربية غيره وتبدأ الدراسة في سن السادسة وتنتهي في السادسة عشر، يقضي المتعلم ثمانية سنوات في المدرسة الشعبيةvolksschule وإثنان في المدرسة التكميلية العامة Allgemeine fortbildungsschule.[2]

تكلم كانط عن أنواع التربية فهناك تربية فيزيائية أي تربية للجسم وتربية عقلية أي تربية طبيعية، وما دامت كذلك، فإنها فيزيائية، لكن ينقص الإنسان الأخلاق، ويؤكد

[1] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الدين والتربية عند كانط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، سنة1980 ص121

[2] المرجع نفسه، ص126

على تعلم الطفل العمل ولا يجب أن نجيب عن أسئلة الطفل التي يطرحها لأنها مضرة له لماذا هذا؟ وما الفائدة في هذا؟

هذا السؤال نجده عند روسو في الكتاب الثاني"إميل"، حيث يقول: " ما فائدة هذا؟ تلك من الأن فصاعدا عبارته المقدسة."[1] فهو يقر بوجود إجراء حوار عقلي مع الأطفال قدر المستطاع ويؤيد كانط روسو في فكرة أن العقل والتعقل أخر ملكات النفس نضجا في الإنسان فلا ينبغي اللجوء إليهما مع الطفل لأن غايته الكمال الأخلاقي.

يتساءل كانط في نهاية كتابه" في التربية" هل يمكن تعليم الطفل في وقت مبكر المعاني الدينية؟

طرح روسو هذا التساؤل في رسالته إلى "كرستوف دي بومون Christophe de Beaumont" رئيس أساقفة باريس يقول فيها:" أنت تأخذ علي أنني قلت وبينت أن كل طفل يؤمن بالله هو وثني أو مجسم، وترد أنت على هذا بقولك:" إنه لا يمكن إفتراض هذا ولا ذاك في طفل تلقى تربية مسيحية."[2]

يأخذ كانط ما ذهب إليه روسو، ويقول:" إن المعاني الدينية تفترض دائما نوعا من اللاهوت فهل يمكن تعليم الشباب الذي لا يعرف العالم ولا يعرف نفسه ولا يعرف الواجب أن يفهم واجب مباشر نحو الإله."[3]

يرى كانط أن خير وسيلة لتوضيح الإله عند الطفل، أن نقارنه بالأب الذي يرعانا، بهذا يفهم وحدة الناس جميعا كأنهم أسرة واحدة. يتساءل كانط ما الدين؟

ثم يجيب قائلا:" الدين هو القانون الموجود فينا بالقدر الذي به يستمد سلطانه علينا من مشرع وحاكم(قاض) إنه أخلاق مطبقة على معرفة الإله وإذا لم يرتبط الدين بالأخلاقية فإنه ليس إلا بحتا عن النعم."[4] يصنف كانط الأخلاق هي الأولى، وبعدها اللاهوت حتى يمكن أن نسميه الدين، والأطفال لا يمكنهم فهم كل المعاني الدينية، فمفهوم الإله ومفهوم الواجب يكونان معا، ولهذا ينبغي أن نعلمهم بعض المفاهيم

[1] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الدين والتربية عند كانط، ص136

[2] Lettre de J. J. Rousseau a Christophe de Beaumont. Oeuvres complètes,T, Vu, Ed, Dep,R,Auguis, p169.

[3] المرجع نفسه،، ص106

[4] المرجع نفسه، ص108

الخاصة بالموجود الأعلى حتى إذا لا حظوا الكبار يصلون ويدعون يستطيعون معرفة السبب.

يتفرع المذهب الأخلاقي عند كانط حول فكرة الإنسانية وعلى الأباء أن ينشؤا أبنائهم على حب الإنسانية عامة مهما كان على حساب الأسرة أو الوطن.

يقول ديوي: "إن التغير لا الثبات هو معيار حقيقة الوجود الأن، فالتغير موجود في كل مكان والقوانين التي يعني بها رجال العلم قوانين حركة وتوالد وتتال."[1]

اصطبغت فلسفة ديوي بطابع تطوري واتخذ من التغيير سمة أساسية لجميع أرائه الفلسفية والأخلاقية، فالفلسفة لم تعد تبحث عن الثابت اللامتغير، بل تخضع للتغير يقول ديوي: "إن التغير لا الثبات هو معيار حقيقة الوجود الأن، فالتغير موجود في كل مكان والقوانين التي يعني بها رجال العلم قوانين حركة وتوالد وتتال."[2]

تعتبر البراغماتية القاعدة الفلسفية الأساسية للتربية التقدمية التي رفع لوائها ديوي، فقد صنعت أفكاره التربوية ثورة حقيقية في عالم التربية والتعليم، وكان جهده له علاقة بمزيج متنوع من أراء الفلاسفة والمفكرين الدين سبقوه، وقد ساهمت قراءته لهذا الفكر المتنوع بتأسيس منهج فكري ومشروع تربوي استطاع أن يرسخ لمدة زمنية طويلة منتشرا عبر أنحاء العالم مؤثرا في الكثير من الباحثين المعاصرين المنشغلين بالتربية.

خاتمة:

تعتبر البراغماتية القاعدة الفلسفية الأساسية للتربية التقدمية التي رفع لوائها ديوي، فقد صنعت أفكاره التربوية ثورة حقيقية في عالم التربية والتعليم، وكان جهده له علاقة بمزيج متنوع من أراء الفلاسفة والمفكرين الذين سبقوه، وقد ساهمت قراءته لهذا الفكر المتنوع بتأسيس منهج فكري ومشروع تربوي استطاع أن يرسخ لمدة زمنية طويلة منتشرا عبر أنحاء العالم مؤثرا في الكثير من الباحثين المعاصرين المنشغلين بالتربية.

---

[1] جون ديوي، التجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مراجعة زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، مصر، دط، دت، ص135

[2] جون ديوي، التجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مراجعة زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، مصر، دط، دت، ص135

من هنا، كان من واجبنا الاهتمام بالبحث في الأسس والمنطلقات الفكرية والاجتماعية التي ساهمت في ما قدمته هذه الشخصية المتميزة بغرض الوصول إلى بلورة نظرة شاملة حول طبيعة المشروع التربوي، من خلال الجمع بين الجانب الفلسفي والتربوي عنده.

جمع ديوي أراء فلسفية تربوية متنوعة من كبار الفلاسفة والمربين، استطاع أن يؤسس بها مشروعه التربوي الذي هيمن على الفكر التربوي بداية مع مطلع القرن العشرين إلى الوقت الراهن في الساحة الفكرية العالمية، حيث طبقت بعض البلدان أفكاره التربوية التي ساهمت في بناء مدراسها وتوجيه أبنائها نحو المشروع التربوي الذي برزت ثماره في المجتمعات والمؤسسات لفائدة هذه الدول.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر

أ- باللغة العربية:

1. جون ديوي، إعادة البناء في الفلسفة، أحمد الأنصاري ومراجعة حسن حنفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر ط1،سنة2010.
2. جون ديوي، التجديد في الفلسفة، ترجمة أمين مرسي قنديل، مراجعة زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة مصر، دط، دت.
3. جون جاك روسو، إميل أو التربية، ترجمة عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، دط، سنة 1958

ب- باللغة الأجنبية:

1. Lettre de J. J. Rousseau a Christophe de Beaumont. Œuvres complètes, Vu Ed, Dep,R,Auguis.

ثانيا- المراجع

باللغة العربية:

1. أحمد راجع سعد مرسي، تطور الفكر التربوي، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، سنة1986.
2. صالح عبد العزيز، تطور النظرية التربوية، دار العلم، القاهرة، مصر، ط2، سنة1964.
3. عبد الرحمن بدوي، فلسفة الدين والتربية عند كانط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، دط، سنة 1980.
4. عمر محمد التومي الشيباني، تطور النظريات والأفكار التربوية، دار العلم، بيروت، لبنان، ط2،سنة1985.
5. عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط1، ط5، سنة1973، سنة 1984.
6. محمد لبيب النجيحي، الأسس الاجتماعية للتربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط2،سنة1981.
7. محمد عبد الرحمن بيصار، تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، منشورات المكتبة العصرية، مصر، ط3، سنة 1980.
8. محمد لبيب النجحي، مقدمة في فلسفة التربية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، سنة1981.
9. محمد الفرحان جلوب، الخطاب الفلسفي التربوي الغربي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، سنة1999.
10. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت

ثالثا: الموسوعات

الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسعة للنشر والتوزيع، المملكة السعودية، ط2، دت

رابعا: شبكة الأنترنت

هشام صالح، **مقال من الشرق الأوسط**، جريدة العرب الدولية، العدد14252، الثلاثاء 2017/12/05 https//aawsat.com